

طفولة الإنسانية

أتحدث إلى حضراتكم عن طفولة الإنسانية ، ولا أعنى بطفولة الإنسانية تلك السن الباكرة التى مررنا بها جميعاً فى مطلع حياتنا ، ولا بأطفال الإنسانية تلك المخلوقات الصغيرة التى نراها كل يوم فى بيوتنا أو حول بيوتنا .

وإنما أعنى تلك الطفولة التى تلازم الإنسان إلى ما بعد الكهولة والشيخوخة ، بل تلازمه حتى يفارق الحياة ، وهى طفولة الروح أو طفولة الأخلاق .

ولكننا لا نستغنى عن الكلام فى طفولة السن حين نتكلم فى طفولة الروح ، لأن الطفولتين تتشابهان فى خصلة واحدة ، وهى أنها تساقان إلى الخير بجزاء وإغراء ، وتدفعان عن الشر بجزاء وإغراء .

فالطفل سناً لا يتناول الدواء الذى يشفيه إلا إذا وعدته باللعبة وقدمت له الحلوى ، ولا يمتنع عن الخطأ الذى يضره ويسقمه إلا إذا لوحث له بالعصا أو الحرمان .

وكذلك الطفل روحاً وخلقاً تقوده إلى الفضيلة بوعده وتذوده عن الرذيلة بوعيد ، ولو كان رجلاً فى الروح والخلق لما احتاج

إلى الوعد والوعيد .

طفل السن يلهب الرمد عينيه وتريه القطرة التي تشفيه
وتخفف الألم عنه ، فيأبأها ويصر على إبائها ، أو تبذل له الهدايا
وتمنيه بالفرجة والمكافأة الحسنة .

ولكنه يصبح رجلاً فيسعى إلى الطبيب بقدميه إذا رمدت
عيناه ، ويبذل ثمن القطرة من ماله عن رضا وارتياح ،
ولا يحتاج إلى أمر ولا وعد بجزاء .

وطفل السن تضنيه الحمى وتناه عن مفارقة الحجرة
فلا يرضى ولا يصيخ إلى النصيحة وهو قادر على مخالفتها ،
ولا تزال به حتى تزين له الاعتكاف في المنزل بالألعاب التي
تبثها من حوله والعلاجات التي تعلل بها خياله وتشغل بها فراغ
وقته عن التفكير في اللعب والخروج .

ولكنه يصبح رجلاً فيعتكف مختاراً ويغضب على من يفتح
النافذة عليه في حجرته فضلاً عن الخروج من الدار .

فعمل المفيد النافع بجزاء هو الطفولة ، والامتناع عن الضرر
الوبيل بجزاء هو الطفولة ، وقد ترى الرجل في الخمسين
أو الستين أو السبعين وهو طفل بهذا المعنى في الحاليتين .

أليس طفلاً بهذا المعنى ذلك الرجل الذي لا يفعل الحسن
الجميل إلا وهو ينتظر الأجر عليه ؟ ولا ينتهي عن العيب
الذميم إلا وهو يخشى ما وراءه من عقاب ؟

أليس طفلاً ذلك الرجل الذى يطلب المآثر لأرباحها وغنائها
ولا يطلبها لذاتها ؟

أليس طفلاً ذلك الرجل الذى ينتهى عن النقص لأنه مهدد
بالعاقبة السيئة ولا ينتهى عنه لأن الكمال خير من النقص ،
ولأنه بغيبض إليه أن يرضى بأسوأ الحالتين وأبخس الصفقتين ؟
إن الرجل الذى يقال له كن قوياً لتصرع الأسود وتغلب
الجبابرة وتكافح الأمراض ، لا يسألنا : وما جزائى على
ذلك ... ؟ فلماذا يسألنا الجزاء إذا قلنا له : كن قوياً لتصرع
الشهوات والمطامع وتنهض بالفروض والعظائم ، وتقدر على
المطلب الجسيم الذى يعجز عنه الآخرون ؟

إن الذى يترك الطعام الغث ليأكل الطعام المفيد لا ينتظر
الجزاء على ما ترك أو على ما اختار ، فلماذا ينتظر الجزاء على
اختيار المروءة وترك النذالة ، أو على اختيار الشرف وترك
الضعة والخمول ؟

إنه يشتري الحرير بالثمن الغالى ويترك الكرابيس وإن
عرضت عليه بالثمن الرخيص ، فلماذا ينتقل إلى سوق المحامد
والفضائل فيأخذ الحرير وهو ينتظر المكافأة على أخذه ؟ ويترك
الكرابيس وهو ينتظر المكافأة على تركها والأنفة منها ؟ .
إنه لا يفعل ذلك إلا لسبب واحد : وهو أنه طفل الروح
والأخلاق ، لا يميز بين الحسن والقبيح ، ولا يعرف النافع

والضار ، ولا يدري الذى هو أدنى والذى هو خير ، ولو درى ذلك لترك الأدنى لأنه أدنى وكفى ، وفعل الخير لأنه خير وكفى ، وكذلك يفعل الرجال كل يوم ، حين يميزون بين الغالى والرخيص ، وبين الحسن والقبيح ، وبين الرفيع والوضيع . إنهم يطلبون الرفيع ويبدلون الثمن العزيز فيه ، ولا يطلبون الرفيع وينتظرون من يكافئهم على أخذه كما يصنع الأطفال : أطفال الروح والأخلاق .

* * *

وهنا يخطر على البال ذكر الثناء . فيخيل إلى الأكثرين أن المرء مطالب باختيار المآثر لأنها تجلب له الثناء ، ومطالب باتقاء المعائب لأنها تعرضه للندم وسوء المقال .

وفى هذا الخاطر شيء كثير من الصدق والتعبير عن الواقع ، ولكننا إذا اكتفيناه به لم يرتفع بنا كثيراً عن طفولة الروح والأخلاق .

لأن الثناء يأتى من ألسنة الناس ، وألسنة الناس لا تقول الحق فى كل حين ، بل الناس أنفسهم لا يعرفون الحق فى كل حين ، ولا يعرفون على الدوام ما هو جدير بالحمد وما هو خليق بالمذمة والإنكار .

وقد ينعكس الأمر عندهم فيذمون الحميد ، ويحمدون الذميم .

وآية الناصح الأمين أنه يعلم الناس ما لا يعلمون ، وأنه يهديهم إلى الخصال التي يغفلون عنها ، ويحذّرهم من العيوب والأخطاء التي يقعون فيها ، ولولا ذلك لما كان للناصحين الأمانة من عمل ، ولا كان للنوابغ المتقدمين على أزمانهم من ضرورة ولا منفعة .

فإذا اقتصر الرجل على ما يحمده الناس وما يذمونه لم يتقدم الناس ، ولم يكن لذلك الرجل من فضل عليهم ، ولا من أثر مشكور في إصلاح شئونهم وتبديل أحوالهم .

وإنما عليه أن يدعو إلى الأفضل الأكمل وإن ذمّه . وأن ينهّاهم عن الأسوأ الأخس وإن أحبّه ، وليس في وسعه أن يفعل غير ذلك إن كان حقاً على إيمان وثيق بما يراه ، وشعور عميق بما يدعو إليه .

إن الرجل الذي يستطيع النظر إلى الحقائق والبساتين وينفر من الجلوس إلى المستنقعات والبؤر الموبوءة لا يفعل ذلك لأن الناس يحمّدونه أو يذمّونه ، ولا لأنهم يرضون عنه أو يسخطون عليه ، فإنه ليحبّ النظر إلى الحقائق والبساتين وإن ذمّه ، ويكره النظر إلى المستنقعات والبؤر وإن شكّروه .

كذلك يصنع الرجل الذي يسمو به الذوق ويعلو به الروح حتى يدرك الفارق بين المنظر الجميل والمنظر القبيح ، إنه لينظر هنا أيضاً إلى الحديقة المزهرة وإن لم يغنم ثناء من ألسنة الناس ،

وإنه ليعرض هنا أيضًا عن البؤرة الكريهة وإن ساقته إليها ألسنة الناس ، لأنه يحتمل الأذى في سبيل المتعة بالجمال ويحتمل الأذى في سبيل البعد عن القبح والدمامة ، وجزاؤه على ذلك أنه يرى الجمال ولا يرى القبح والدمامة ، وليس جزاؤه ما يقال أو ما لا يقال .

تلك هي رجولة الروح والأخلاق . وأما ما دونها فهو طفولة الإنسانية التي تحتمل الرمد ولا تحتمل القطرة ، والتي تتداوى من الرمد بأجر ووعد ، وتقبل القطرة بأجر ووعد ، ولن تزال كذلك حتى تبلغ مبلغ الرجال .



إن رجولة الروح والأخلاق هي أرقى ما ترتقى إليه الإنسانية في معارج الجمال ، وقد قال أبو العلاء :

ولتفعل النفس الجميل لأنه خير وأجمل لا لأجل ثوابه

وهكذا ينبغي أن يفعل كل إنسان تجاوز مرتبة الطفولة إلى مرتبة النضج والكمال .

ينبغي أن يرتفع الإنسان لأن الرفعة جميلة في عينيه . ولأن الخسة مؤلمة لنفسه ، وكذلك يفعل كل إنسان في المحسوسات كل يوم وكل ليلة ، فيأكل الشهى لأنه يحب مذاقه ، ويلبس الجميل لأنه يعجب بحسنه ، وينبذ الطعام الكريه لأنه لا يستطيعه ،

وعرض عن الملبس الزررى لأنه يأنف منه ، وليس لسبب غير هذا وذاك .

وإنما ترتقى الأمم والأفراد إلى هذه الدرجة الرفيعة حين ترتقى في التمييز بين الأخلاق والأذواق كما تميز بين المحسوسات من المأكول والملبوس .

عندئذ يسهل الإصلاح في الأمة ، ويسهل على المصلح أن يصل منها إلى مواضع الإقناع .

فالأمم في هذه الخصلة قسمان : أمم الأطفال وأمم الرجال : أمم الأطفال هي الأمم التي تعودت أن تطلب الجزاء وراء كل نصيحة ، فإذا قام فيها المصلح الأمين شكت فيه ولم تفهم ما يريد إلا إذا وقع في روعها أنه ينتظر الجزاء في الدنيا والآخرة ، إما بالثناء وإما بجنات النعيم ، وهي تفهمه إذن على قدر ما تتصور من جزائه وجزائها ، لا على قدر الكمال الذى يدعو إليه ولا على قدر التمييز بين الصواب والخطأ وبين الرجولة والطفولة .

أما الأمم التي ارتفعت في مراتب الرجولة فهي لا تستريب في المصلح الأمين لأنها لا تجهل فائدته وجزاءه ، ولا يهملها إلا أن تميز كلامه لتعرف موقع الصواب فيه ، فإذا كان صواباً اتبعته وإن كان عظيم الكلفة عليها ، وإذا كان خطأ أنكرته وإن كان محبباً إليها وميسوراً لديها . كما يفعل طالب الصحة حين يميز بين

الطبيب الصادق والطبيب الكاذب ، فيصغى إلى الطبيب الصادق وإن أمره بترك اللذيذ من الطعام وشرب الكريه من الدواء ، ويعرض عن الطبيب الكاذب وإن وصف له ما يرضيه وموّه عليه في حقيقة ما يشكوه .

والعبرة في كل حال بالتمييز .

فلم نخطئ في وصف الرجولة بأنها سن التمييز ، لأن الخطوة الأولى في سبيل الاختيار الصحيح هي تمييز الفاضل من المفضول والراجح من المرجوح ، ثم تأتى الخطوة التالية وهي الأخذ بالراجح وإن صعب الأخذ به ، وترك المرجوح وإن تيسر الحصول عليه .

وكذلك رجولة الإنسانية هي في الواقع درجة التمييز بين الكمال والنقص مع غض النظر عن المكافأة والعقاب ، فمن ميز الكمال والنقص طلب الكمال وإن خسر في سبيله ، وترك النقص وإن ربح من ورائه ، ولم يجد غرابة في هذا وذاك ، ولم يساوره الندم بعد هذا وذاك .

ما دام الإنسان يريد الخير فهو ينشده ويبذل فيه ثمنه وإن غلا ، وهو إذن رجل الروح والأخلاق .
وما دام الإنسان يراد على الخير فهو لا ينشده إلا إذا عرف

الجزاء عليه ، وهو إذن طفل الروح والأخلاق وإن جاوز السبعين
والثمانين .

وخير ما نرجوه لهذه الأمة أن تحمل تكاليف الرجولة بغير
نظر إلى جزاء ، فذلك في النهاية هو أوفى الجزاء .